

توطئة

بروكسل ١ حزيران ٢٠٠٦

إن المسؤولين عن الحركات التي تضمّ علمانيين مسيحيين، الذين أطلقوا، منذ خمس سنوات، المنتديات المسيحية بشأن العولمة (ACM)، كانت تحدوهم فكرة بسيطة: كيف يمكن تدارك الخوف الذي يتملك اليوم أغلبية من مواطنينا، مسيحيين أو غير مسيحيين، أمام مواجهة العولمة؟ وكيف نمذّ جسراً فوق الهوة التي تفصل بين الذين يتعاطون شؤون الأسواق العالمية يومياً ويمتلكون وسائل قراءة تمكنهم من تحديد مواقعهم وسط تعقيداتها، وبين الذين سحقتهم هذه التعقيدات، وأرهقهم عجز الحكومات الظاهر عن ضبط مفاعيلها، فعمدوا إلى خيار الاحتماء وراء الجهل أو الإدانة؟

بالنسبة لهؤلاء العلمانيين، كان الفكر الاجتماعي المسيحي، يوفر لهم قبلياً، معالم استدلال. هذا الفكر الذي جابه، منذ أمد بعيد، القضايا التي يطرحها التوتر القائم بين التملك الفردي واحترام الخيرات العامة، بين تنوع الشعوب ومصيرها المشترك، والذي تنبّه إلى حدود القدرة على استثمار الثروات أو على استهلاكها حتى النفاذ، بدا كأنه يقدم، بحق، مفاتيح قراءة يمكن عرضها على جميع ذوي الإرادة الطيبة. فالمسألة، بمناسبة هذه المنتديات المسيحية، كانت، إذن، أن نشيع رجاء ما، دون أن نحابي، مع ذلك، التهديدات الخطيرة التي يشكلها انتشار العولمة الحالي.

والكتاب الأبيض يعبر عن مسيرة شديدة الاختلاف عن المسيرة التي كانت متوقعة. وبدلاً من أن يفيد حملة هذه المبادرة من معرفة رهانات العولمة معرفة قبليّة، فإنهم اضطروا إلى البدء بالتجرّد من قناعاتهم متخلّين عن شبكات تأويل بالغة الاقتضاب. فالمنتديات المسيحية بشأن العولمة هي أولاً: حكاية إصغاء متبادل إنطلاقاً من مدارك في غاية الاختلاف عن العولمة، حكاية تؤثر فيها، أحياناً،

الأوضاع المهنية لدى أرباب العمل، أو الكادرات أو أصحاب الأجر أو المستثمرين الزراعيين، وأحياناً التقاليد المختلفة، في الحقيقة، بين الخبرات الكاثوليكية أو البروتستنتية أو الأرثوذكسية.

هكذا تبدلت نقطة انطلاق الشهادة لتتخذ لها نقطة ارتكاز، ليس الانتماء إلى جماعة أو إلى كنيسة خاصة، وإنما إلى العولمة بالذات في تجلياتها الملموسة المختلفة، كالتربط البيئي، والتوترات حول الهجرة، والمظاهر العميقة التناقض في تبديل مواضع التمركز، والعقبات العملية الضخمة القائمة بوجه الاختراقات الضرورية لعمل المؤسسات الدولية وفعاليتها. فبإصغائنا بعضنا إلى بعض، أفسحنا المجال للعولمة بالذات؛ وبتخلينا عن بعض الأفكار المسبقة، أدركنا إدراكاً أفضل قوة الروح العامل فيها. فالمسألة إذن هي أن نشهد لنفح "الروح" الإنجيلي أكثر مما هي أن نسوق لفائدة مرجعية مسيحية.

ولكن، في النهاية، ماذا تعني، حسياً وواقعياً، الشهادة لهذا النفح، في سياق العولمة؟ النفح هو ما يهب حياة، وما يؤنس بشكل من الأشكال. وأنسنة العولمة لا تتحقق -أقله- لم نصل بعد إلى هذا الحد- بواسطة إصلاحات كبرى مقومة تأتي من رأس هرم المنظمات الدولية. فصعوبات جمة تتحالف لتتغلب على حاجز السلطات السيادية. وتاريخ البنيان الأوروبي بالذات، الذي تحقق على يد أمم متجاوزة وحركته حوافز عميقة جداً، يبرز أنه كي تبني من فوق مجتمعاً تكون فيه السيادة مقسمة، فذلك يتطلب عقوداً من الزمن. وتطورات أنسنة العلاقات الدولية ستبني من القاعدة، أي: بعدوى مبادرات جزئية وطوعية يقوم بها مجددون يكونون قد جازفوا، طوعياً، بفرض مسلك على أنفسهم لم يوجبه القانون بعد. وفي سبيل تقديم مثل معبر عن ذلك، نشير إلى أن العمل الإغاثي الذي تطوعت له عدة جمعيات ذات مشارب مسيحية، لدى السكان الإفريقيين، أو في فرنسا، لدى المهاجرين، ليست قيمته في المساعدة الفورية التي يقدمها فحسب، بل أيضاً، في ما يكشفه لنا من عثرات الحوكمة (La gouvernance) وتحسيناتها الممكنة، محلياً أو دولياً.

لذلك، إليكم، على الأقل، واحدة من رسائل هذا الكتاب الأبيض المتواترة: ما من مبادرة زهيدة، شخصية كانت أم تعاقدية، في حقل التجارة العادلة، وفي المسؤولية الاجتماعية عن المؤسسات، وفي استقبال المهاجرين. وليس هذا فحسب، بل إن مثل هذه المبادرات، عندما تساق إلى نهاياتها وإلى تمام نتائجها، هي التي يمكنها حقاً، أن تشكل نموذجاً للقانون الدولي عندما يحين الوقت فتوافق عليها

الشعوب وممثلوهم. وبطبيعة الحال، إن هذه المبادرات غير كافية لإرساء أسس نظام دولي أكثر عدالة. فهذا النظام يستلزم انتقالاً نهائياً إلى قاعدة القانون. والكتاب الأبيض يجعل من هذا المنظور النتيجة النهائية، أو غاية المبادرة المواطنة المنشودة بصراحة ووضوح (أنظر بخاصة المحور المكرس لحياة المؤسسات وإعادة الهيكليات). يبقى أن سلكاً سريعاً يصل هذه النتيجة النهائية بالمجازفة الأولية، وهي التعبير عن نفح الروح.

والكتاب الأبيض، بهذا المعنى، يدعو إلى صيغة اختبار روحي، كون المرء لا يتعرف إلى الروح وهو يعمل، إلا بالانفتاح عليه في اختبار داخلي. فتكوين الذات، ومعرفة الآليات البدائية للاقتصاد المعولم اليوم، تشكلان جزءاً من شروط هذا الاختبار. ولا يتناقض مع حياة الإيمان أن نتربى، بجديّة، على الحقائق الدولية التي تقضّ مضاجعنا، وتقلقنا، خاصة وأتينا عقداً الرأى على ألا نتعرف إليها سوى سطحياً، بل العكس هو الأصح. ومجمل الحركات والجمعيات والكنائس التي هي في أساس هذا الكتاب الأبيض تلتزم، بالتالي، بمثل هذا الجهد من التكوين الذاتي. فمن هذه الزاوية قد يشكل الكتاب الأبيض حقل تدريب متواضع.

جيروم فينيون

رئيس المنتديات المسيحية بشأن العولمة

